الفصل الخامس

الكنيسة – أم الطبول

أبو كار

الفصل الخامس
الكنيسة – أم الطبول – أبو كار

تقع منطقة تمزدة على بعد حوالي 6 كم إلى الغرب من مدينة جادو. وتشتهر هذه المنطقة – كما هي المناطق المجاورة لها– بسهولة المنبسطة، تربتها الخصبة، وبكثرة أشجار الزيتون فيها. وهي إذ تقع على سطح مرتفع جبلي، لتختلف عن المنطقة الغربية من جبل نفوسة. وهي أيضا تختلف في بقايا أطلالها عن بقية القرى التي تطرقنا إليها آنفا. وتظهر بقايا أطلال تمزدة على، أو بين الهضاب الصغيرة. ولا نرى حولها ما يدلل، على إنها في أي وقت مضى، قد اتخذت نوعا من الوسائل الدفاعية لحمايتها. وربما يكون هذا عائدا من جهة، إلى موقعها في وسط جبل نفوسة. ومن الجهة الأخرى للتحصن الطبيعي المتمثل في سلسلة الجبال، الممتدة من الشمال الشرقي إلى الشمال الغربي للمنطقة. ولعل لهذه الجبال الدور الرئيسي في فشل كل المحاولات العسكرية للاستيلاء عليها. وان كانت أكثر ما حققته هذه المحاولات، إحراق أشجار الزيتون في أسفل هذه الجبال.[307]

وما يميز هذه المنطقة هو كثرة الأطلال المتناثرة في كل أنحائها. ولقد رأينا التركيز على بعض المعالم الأثرية بها وصولا إلى إظهار التنوع الفني المعماري في منطقة جبل نفوسة. وبالإضافة إلى ذلك، إلقاء مزيد من الضوء على الجوانب، التي كانت مثار نقاش في الصفحات السابقة.

307– علي يحي معمر، موكب ، الجزء الثاني ، ص 205.

مسجد الكنيسة:

يوجد إلى الغرب من مدينة جادو متفرق طرق، على بعد حوالي 12 كم منها، وثمة طريق متجه نحو الشمال الغربي من هذا المفترق. ويقود هذا الطريق إلى تمزدة، التي تقع على بعد حوالي 3 كم. ويظهر على يمين هذا الطريق المبنى المعروف بالكنيسة.

ولا تمدنا المصادر التاريخية – ومن ضمنها السير – بأي معلومات، سوى الإشارة إليه، بأنه احد المساجد، التي تحظى بكل تقدير، من قبل الأهالي بجبل نفوسة.[308] وربما تكون هذه الندرة في المعلومات لقرب هذا المبنى من جادو، إحدى المدن المشهورة بمنطقة الجبل.[309]

وهذا المسجد يحتفظ بكثير من عناصره المعمارية الأصلية. خلافا لما عليه المساجد القديمة بجبل نفوسة. وربما يعود هذا إلى جودة الحجر المستعمل في البناء، بالإضافة إلى حجم المبنى ووضعه في باطن الأرض. الأمر الذي صرف الأهالي عن القيام بأعمال الترميم والإصلاح، كما رأينا في المواقع السابقة.

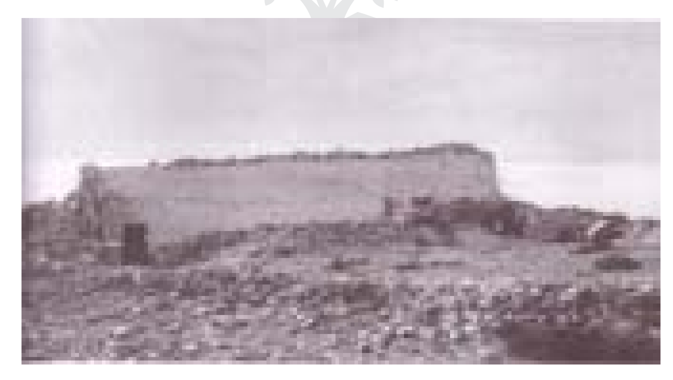
ويبدو ان هذا المبنى قد شيد بالحجر، بعد حفر موقعه في تلة صغيرة. ولولا واجهته المطلية باللون الأبيض، وبعض الأحجار الرومانية الظاهرة فوق الكثيب، لما اهتدت إليه العين بسهولة. ولا يفهم من وجود الأحجار بأعلى هذا المبنى إنها تقوم مقام (الصمعة) التي اشرنا إليها فيما مضى، بل هي على ما يعتقد أحجار جلبت من موقع روماني قديم، لكنها زادت عن حاجة البناء. فتركت بالموقع.

308– الشماخي، ص 599، أنظر أيضا روسي، نفس المصدر، ص 91.
309– ابن حوقل، نفس المصدر، 94–5.

وثمة احتمال بان المبنى الروماني كان في نفس الموقع قبل بناء المسجد (أنظر شكل 173، 174).



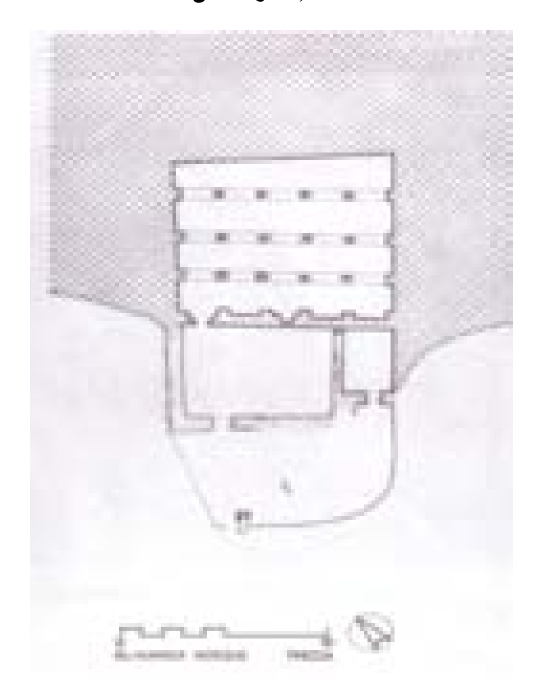
شكل 173 سطح مسجد الكنيسة بمنطقة تمزدة



شكل 174 الجدار الجنوبي الشرقي لمسجد الكنيسة بتمزدة

ويتكون هذا المسجد (الكنيسة) من مخطط مربع الشكل تقريبا. ويبلغ طول جدار القبلة حوالي 25.10 م. والجدار الشمالي الشرقي حوالي 10.5 م بينما يبلغ سمك الجدران 60 سم (أنظر شكل

175). وتتكون قاعة الصلاة من أربعة أروقة، مغطاة بأقبية برميلية. وهي مدعمة بأقواس شبه نصف دائرية، مقامة على اثنتي عشر عمودا. كما ترى الدعامات الساندة للجدران، ما عدا في الحائط الجنوبي الشرقي. وتعتبر هذه الأقواس من الناحية المعمارية والفنية الأفضل تنفيذا في جبل نفوسة. ويلاحظ ان بعضا منها يستقر على تيجان مربعة الشكل. ويبدو واضحا عدم التوافق بين عناصر المسجد المعمارية. الأمر الذي يدلل على ان هذه الأحجار والأعمدة قد أعيد استعمالها لبناء هذا المسجد (أنظر شكل، 176، 177، 178).



شكل 175 قاعة الصلاة بمسجد الكنيسة بتمزدة



شكل 176 قاعة الصلاة بمسجد الكنيسة بتمزدة

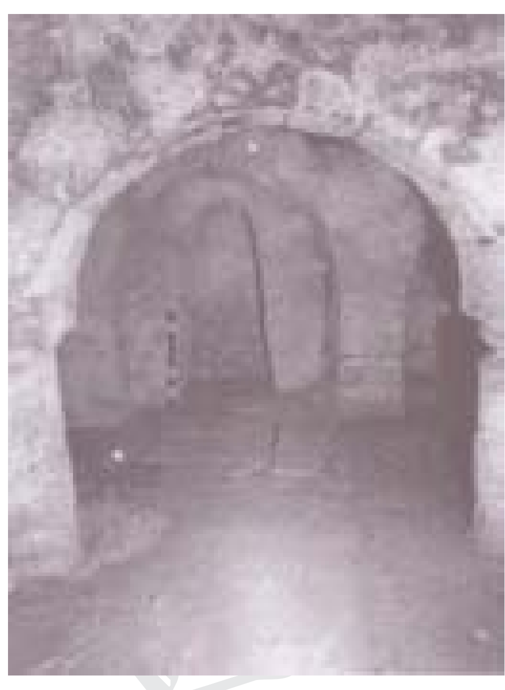


شكل 177 قاعة الصلاة بمسجد الكنيسة بتمزدة



شكل 178 لقطة لعمود من الأعمدة الموجودة بقاعة الصلاة لمسجد الكنيسة

ويقع محراب المسجد، بشكل تقريبي، في منتصف الجدار الجنوبي الشرقي. وهو عبارة عن تجويف نصف دائري. ولا ينسجم مع بقية عمارة المسجد. ولقد استخدم في بنائه الأحجار الجيدة القطع. والشكل المسطح لخلفية المحراب يذكرنا بالمحراب الموجود بمسجد تندميرة. والفارق ان محراب مسجد أبي منصور إلياس، يبرز خارج جدار القبلة. ويبلغ عرض محراب مسجد (الكنيسة) حوالي 60 سم. وعمقه حوالي 50 سم (أنظر شكل 179).



شكل 179 محراب مسجد الكنيسة بمنطقة تمزدة

ويبدو ان المحراب بشكله البسيط، وتناقضه مع مستوى بناء بقية المسجد، متفقا مع أغلب المحاريب بمساجد جبل نفوسة، التي تخلو من التنميق، زخرفة أو كتابة. وعلى الرغم من هذه الظاهرة، فالمحراب في العمارة الإسلامية، اكتسب أهمية من خلال دلالته على الاتجاه الصحيح للقبلة. وهذا شرط أساسي في صحة الصلاة. ولهذا السبب، كان في كثير من الأحيان محط عناية الفنانين المسلمين. ونرى هذا الاهتمام في مساجد الجبل في كل من أبناين، تندميرة، وشروس. والراجح ان محراب مسجد الكنيسة الأصلي كان متطابقا والمستوى

الجيد لبناء المسجد. أما المحراب الحالي فهو نتيجة لترميم قد لحق بالمسجد في فترة متأخرة.

ومما يزيد من مستوى هذا الترجيح، وجود أحجار مستطيلة جيدة القطع أمام المحراب. كما وجد غيرها متناثرا في بعض أنحاء المسجد. وإذا افترضنا إنتماء هذه الأحجار إلى المحراب الأصلي، فعددها يزيد بكثير عما يحتاجه بناء المحراب. الأمر الذي يجعلنا نظن ان أرضية هذا المبنى كانت مغطاة بهذه الأحجار المصقولة. وهذا مما يزيد من احتمال وجود مبنى سابق على بناء المسجد. وثمة قصة شائعة بين سكان المنطقة، تتعلق بنفر من المغاربة تمكنوا من العثور على كنز بهذا المبنى. ولم يكتشف الأهالي الدمار الذي تم بالمسجد إلا في اليوم التالي. وهذا ما يذكرنا بقصة المحراب المجصص في قونية (العهد السلجوقي)، الذي تعرض هو الآخر للتدمير من قبل سكان القرية، بحثا عن كنز خلف المحراب. ولم تكن النتيجة إلا تدمير المحراب[310]، والعثور على التراب .

ونجد هذه القصة مرتبطة بالكثير من المساجد في منطقة تمزدة. وعلى العموم فوضع محراب مسجد الكنيسة، والأحجار المتناثرة بقاعة الصلاة، توحي بأن عملا تدميريا متعمدا قد جرى بهذا المكان (أنظر شكل 179). ولازال بعض الناس يعتقدون بان الكنز لازال موجودا بالمبنى، ومدفونا بأحد جدران المسجد. ويعزون وجوده لتحوط الأقدمين بإيجاد المال اللازم لإعادة بنائه في حالة التصدع أو الانهيار.

310– المعلومات الشفوية زودنا بها كل من استاذ الآثار والفنون الإسلامية بجامعة لندن الدكتور جيزا فيهرفاري، وكذلك الدكتور م. كياني أستاذ الفنون الإسلامية، ومن الممكن الاطلاع على المصدر التالي:
R. Hillenbrand, Oriental Art, Vol, XVIII, 1972, PP. 1–14, See also, Hillenbrand, Kunst des Orient, X/1–2, 1976, PP. 49 7.

وعلى الرغم من عدم وجود الدليل الأثري – حتى الآن – لحسم هذا الأمر، فإننا لا نقطع بعدم وجود ما يطلق عليه (الذخائر) في المباني القديمة.[311] ويبدو ان ثمة ما يمت إلى حقيقة هذه القصة، بشكل أو بآخر، وإلا لما تناقلتها الأجيال، وأصبحت على هذا المستوى من الشيوع. ويجب إلا ننسى ان المساجد القديمة في جبل نفوسة قد تعرضت لكثير من الترميمات بعد إهمال دام لسنين طويلة. ونحن إذ نقول بغياب الحفريات الأثرية بهذه المنطقة، لنرى هذه الظاهرة تمثل إشكالية للدراسات المتعمقة بهذه الأنحاء من جبل نفوسة. وما يجب ان نؤكد عليه هنا ان مسجد الكنيسة – كما هي مساجد أخرى بهذه المنطقة – تزودنا بما يشير إلى التدمير المتعمد.[312]

ولمسجد (الكنيسة) مدخل واحد، يقع في الجهة الجنوبية الغربية من جدار القبلة. ويبلغ عرضه حوالي 56 سم، وارتفاعه 43.1 م تقريبا (أنظر شكل 180). وهنا أيضا كما هو المحراب نلاحظ عدم التلاؤم بين بنائه وبين عمارة المسجد. وتشمل هذه الملاحظة جدار القبلة، الذي تعرض إلى ما يبدو، إعادة لبنائه بالكامل. ولا يوجد بقاعة الصلاة إلا فتحتين بالجدار الشمالي الشرقي، للضوء والتهوية (أنظر شكل 181). ويوجد كذلك في الجدار المقابل لحائط القبلة حنية ذات قوس شبه نصف دائري (أنظر شكل 182). ولا يبدو ان هذه الحنية ذات وظيفة عملية في المسجد. ومن المستبعد أيضا ان تكون مدخلا مسدودا، ذلك لأنها في وسط التلة، التي تعلو على

311– في بداية السبعينات وجد رجل جرة مليئة بالعملة الفضية، بينما كان يحرث الأرض. وهذه العملة تعود إلى العهد الحفصي، وهي محفوظة بمصلحة الآثار، ولكن لم يكتب عنها بعد. وللاطلاع على مثيلتها أنظر، النقود العربية في تونس، تونس 1968. ص 148.

312– أنظر أعلاه، ص 102.

سطح المسجد ذاته، ويرجح ان هذه الحنية ذات صلة بالمبنى القديم القائم بهذا الموقع قبل بناء المسجد. وهذا ما يعطي لتسمية المبنى من قبل الأهالي بالكنيسة، معنى يشير إلى الأثر الأقدم عهدا.



شكل 180 المدخل الوحيد لمسجد الكنيسة الموجود بالجدار الجنوبي الشرقي

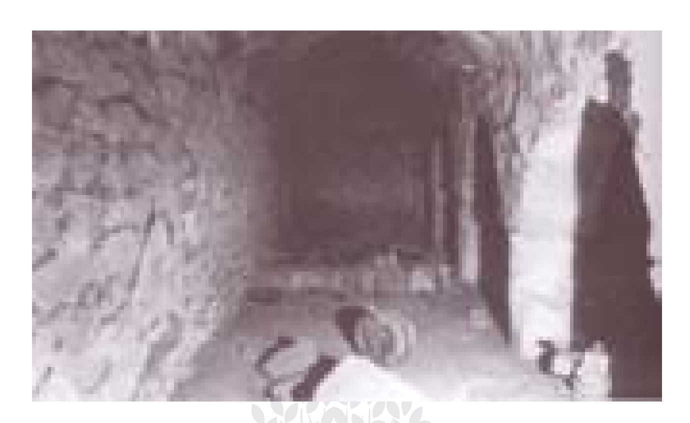


شكل 181 قاعة الصلاة بمسجد الكنيسة بتمزدة



شكل 182 قاعة الصلاة بمسجد الكنيسة بتمزدة

ويظهر بقاعة الصلاة، على يمين الناظر إلى هذه الحنية المعقودة قبران (أنظر شكل 183). وعلى الرغم من ان هذه الظاهرة شائعة بمناطق جبل نفوسة، إلا ان ما يثير الانتباه هو وضعية القبرين المتعامدين مع جدار القبلة. وهذا مما يتناقض مع وضعية القبور الإسلامية المتوازية مع جدار القبلة. وتجنبا للإسهاب، فهذه إشكالية أخرى تضاف إلى الإشكاليات السابقة المتعلقة بهذا المسجد، وحقيقة أصل هذا المبنى. وهذا ما سنأتي عليه في الصفحات التالية:



شكل 183 قاعة الصلاة بمسجد الكنيسة بتمزدة

ويوجد فناء صغير ملحق بالمسجد في الجهة الجنوبية الشرقية. وهو ذو شكل شبه مستطيل، حيث يبلغ طول الجدار الشمالي الغربي حوالي 30.5 م، والجدار الجنوبي الغربي 25.7 م تقريبا (أنظر شكل 175). ويقع مدخل هذا الفناء في الجهة الجنوبية الغربية، قبالة مدخل المسجد. ويقدر عرضه بحوالي 90 سم (أنظر شكل 174). وتظهر الأحجار الرومانية واضحة بهذا المدخل (أنظر شكل 184). كما توجد حجرة صغيرة ملحقة بالمسجد، في الجهة الشمالية الشرقية. ويبلغ طول جدارها الشمالي الغربي حوالي 60.3 م، بينما يبلغ عرض مدخلها حوالي 60 سم (أنظر شكل 175، 185). ووجود الحجرات بمساجد الجبل ظاهرة منتشرة، ولكننا نراها هنا خارج المسجد. ويظن من خلال تقويم البناء إنها تعود إلى فترة متأخرة. ويبدو إنها قد استعملت لإيواء الزوار.

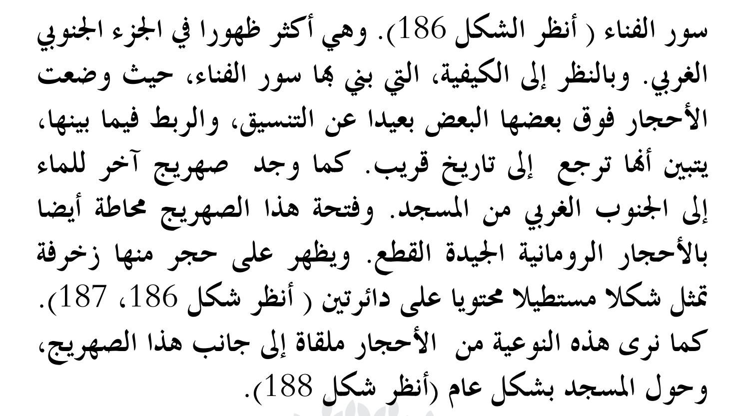


شكل 184 الجهة الجنوبية الشرقية لمسجد الكنيسة بتمزدة



شكل 185 الجهة الجنوبية الشرقية لمسجد الكنيسة بتمزدة

ويقود كل من مدخل المسجد ومدخل الفناء إلى فناء آخر في الجهة الشمالية الشرقية. وهو ذو شكل شبه مستطيل. وتقدر مساحته بحوالي 50 متر مربع. ويوجد بهذا الفناء صهريج أرضي للماء حيث تظهر على فتحة بعض الأحجار الرومانية، كما هي ماثلة للعيان في



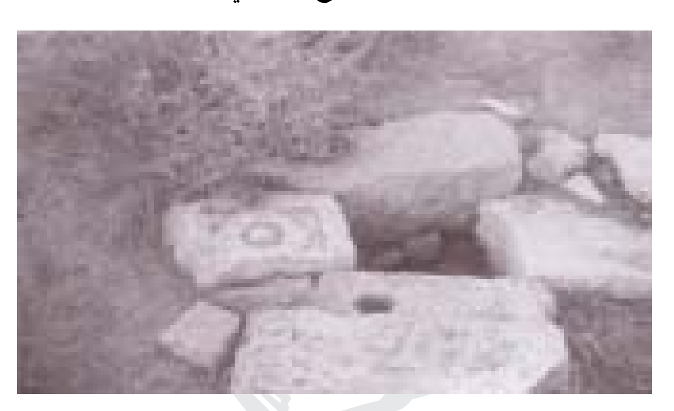
سور الفناء (أنظر الشكل 186). وهي أكثر ظهورا في الجزء الجنوبي الغربي. وبالنظر إلى الكيفية، التي بني بها سور الفناء، حيث وضعت الأحجار فوق بعضها البعض بعيدا عن التنسيق، والربط فيما بينها، يتبين أنها ترجع إلى تاريخ قريب. كما وجد صهريج آخر للماء إلى الجنوب الغربي من المسجد. وفتحة هذا الصهريج محاطة أيضا بالأحجار الرومانية الجيدة القطع. ويظهر على حجر منها زخرفة تمثل شكلا مستطيلا محتويا على دائرتين (أنظر شكل 186، 187). كما نرى هذه النوعية من الأحجار ملقاة إلى جانب هذا الصهريج، وحول المسجد بشكل عام (أنظر شكل 188).



شكل 186 **الفناء الخارجي لمسجد الكنيسة الذي يميد باتجاه** الجهة الجنوبية الشرقية

ويبدو ان مسجد (الكنيسة) على الرغم من احتوائه على أهم العناصر المعمارية، التي تصنفه في قائمة واحدة، مع بقية المساجد في الجبل. فهو يختلف عنها في بعض الوجوه. فالمخطط الأرضي المستطيل للمسجد، الذي رأيناه بمنطقة الغرب من جبل نفوسة، ينسبه علماء الفن والعمارة، إلى التأثر الأموي. ولقد رأينا ان مخطط مسجد

الكنيسة يميل إلى الشكل المربع. وهذه الظاهرة لها علاقة بالمساجد الإسلامية الأولى في العراق.[313] ونحن لا نريد ان نتخذ من هذا المثل دليلا على تأثير العمارة الإسلامية في العراق على منطقة جبل نفوسة، ولكن يصح القول بأن تعدد هذا المثل سيجعل منه موضوعا جديرا بالاهتمام، خاصة وأن المعلومات التاريخية تشير إلى علاقة بين المنطقتين منذ القرن الأول الهجري – السابع مسيحي.[314]



شكل 187 أحجار رومانية ملقاة في الجهة الجنوبية الغربية من السجد

وكما أوضحنا سابقا، فوجود قسم مخصص للنساء يعد أحد مميزات المسجد الأباضي بجبل نفوسة. وهذه الظاهرة لا نراها في مسجد (الكنيسة)، على الرغم من وجود الحنية المعقودة بالجدار الشمالي الغربي، التي تطرح هذا الاحتمال. فالحقيقة أن المسجد يخلو من أي أثر لوجود حاجز بالمسجد في أي يوم من الأيام .

وثمة فارق آخر هام بين مسجد (الكنيسة) والمساجد التي اشرنا

313– كرزويل، نفس المصدر، المجلد الثاني، ص 193.
314– الشماخي، السير، ص 123–4.

إليها في المنطقة الغربية من جبل نفوسة. ويتمثل في حسن التخطيط وجودة البناء. ولولا وجود الأحجار الرومانية في هذا المسجد، لتمت نسبة معماره إلى مستوى البناء، الذي رأيناه في عمارة منازل ويغو.



شكل 188 بقية لعمود روماني موجود ليس بعيدا عن مسجد الكنيسة

ولابد ان يطرح وجود هذه الأحجار الرومانية بكثرة في هذا الموقع العديد من الأسئلة. ولعل أهمها ما يتعلق بوجودها الأصلي. ولا يظهر اليوم للعيان ما يدلل على وجود مبنى روماني قديم بهذا الموقع. وكذلك لا تزودنا المعلومات التاريخية بأي إشارة تساعدنا على تبني هذا الافتراض. ولمزيد من إلقاء الضوء على هذه الإشكالية. وجب تتبع النقاط التي اشرنا إليها فيما يتعلق والتأثير المسيحي على هذه المنطقة.

وقد زودتنا المصادر التاريخية بالكثير عن اضطهاد الدولة الرومانية للمسيحيين حتى القرن الرابع مسيحي. وهو الوقت الذي أصبحت فيه الديانة المسيحية الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية. ولقد سبب هذا الحدث ارتياحا في الوسط المسيحي في الشمال الإفريقي. ولكنه قد تسبب أيضا في خلق إشكالية جديدة. وقد تمخضت هذه المسألة عن

تضارب الآراء حول وضعية القسيسين، الذين هجروا المسيحية إبان فترة الاضطهاد، أو قاموا بتسليم الكتب الدينية إلى السلطات بغرض إحراقها. ونتيجة للجدال الذي دار حول الموضوع ظهر ما يعرف بالدوناتيين (Donatists) في شمال أفريقيا.

ولقد استقل الدوناتيين بمذهبهم الجديد ،الذي أجبرهم على إقامة كنائسهم الخاصة جنبا إلى جنب مع الكنائس الكاثوليكية. وتتحدث المصادر التاريخية عن انتشار الدوناتية بشكل واسع بين القبائل البربرية .ويشمل هذا الأمر أولئك المقيمين بجبل نفوسة. ويبدو ان ظهور هذا المذهب الديني لا يعزى فقط لاختلاف الآراء. بل كانت الدوناتية في جوهرها نزوعا إلى شكل من أشكال الرفض للحكم الروماني .ذلك لان الكاثوليكيين كانوا أنصار للرومان[315]. وربما يعزى إلى هذه الظاهرة عدم استجابة أهالي نفوسة لنجدة الروم بأطرابلس إبان الفتح الإسلامي[316]. وما يهمنا – على أية حال – ان هذا الماضي المسيحي قد تم رصده بما تركه من تأثيرات على جبل نفوسة، فاسم الكنيسة – مثلا – ليس حاصرا على هذا المسجد في منطقة تمزدة، بل أطلق على مساجد عدّة. وهي لازالت تحتفظ بهذا الاسم حتى يومنا هذا. ونحن لا نستبعد صلة هذه المساجد في القديم بمباني الكنائس الأقدم عهدا، بشكل أو بآخر. كما رأينا مساجد أخرى يشار إليها باسم تغليس. وهذه الكلمة مأخوذة من الكلمة اللاتينية .(Ecclesia) وهي تعني الكنيسة .كما وجدت مساجد أخرى ارتبطت باسم الحواريين[317]. والحواريون هم أصحاب النبي

315– هاتيز، نفس المصدر، ص 55–7. أنظر أيضا، ليفسكي، نفس المصدر، ص 39، 50. ودبوز، نفس المصدر، الجزء الأول، ص 406–9.

316– أنظر أعلاه، الفصل الأول، ص 9.

317– الشماخي، السير، ص 598–600. ليفسكي، نفس المصدر، ص 56.

عيسى عليه السلام. وفي هاتين الكلمتين دلالة واضحة على ارتباط هذه المباني بأصول مسيحية.

ونحن نميل إلى القول بأن اعتناق أهالي نفوسة للدين الإسلامي تم بشكل تدريجي، بعد الفتح الإسلامي. إبان هذا التدرج تعايش إتباع الديانتين في سلام، لما كان يتصف به الدين الإسلامي من تسامح وعدم إكراه للآخر لاعتناق الإسلام. وما يدعم هذا القول وجود بعض العائلات، التي انتسبت إلى أجداد من المسيحيين في القرن الثاني الهجري – الثامن مسيحي – وكذلك وجود بعض الأسماء ذات العلاقة بالدين المسيحي[318]. ولكن لم يلبث ان انتشر الإسلام بشكل واسع وسريع في جميع مناطق جبل نفوسة. وكان ذلك متوافقا مع تبني المذهب الأباضي. وعلى الرغم من ذلك استمر الوجود المسيحي على نطاق ضيق إلى وقت طويل.

وبناءا على هذا التوضيح ترجح كفة بناء مسجد (الكنيسة) على أنقاض كنيسة مسيحية. ويمكننا الذهاب إلى أبعد من هذا بالقول إن الكنيسة ذاتها لها علاقة ما بمبنى روماني قديم.[319]

ونحن إذ نميل إلى هذا الاحتمال اعتمادا على شواهد أثرية، فالمصادر التاريخية أيضا تؤكد على ان الرومان قد احكموا سيطرتهم على هذه المنطقة، لفترة طويلة من الزمن. ونتيجة لما عرفناه عن خصوبة الأرض وصلاحيتها لزراعة أشجار الزيتون، فالراجح أن مستوطنات،

وكذلك باسمي، نفس المصدر، ص 426.

318– الشماخي، السير 255–6. هاتيز، نفس المصدر، ص. 34–40.

319– الأعمدة التي وجدت بقاعة الصلاة، وكذلك حول المسجد ، تتماثل بشكل كبير مع الاعمدة الرومانية. أنظر:
Libya Antigua, vol. v. 1968, pl. xl, Fig. a, b, c, d, pl. LI, Fig, b

ولو قليلة، قد أقيمت بهذه المنطقة، إبان الحكم الروماني.

وطالما أننا لم نعثر بمرقع مسجد الكنيسة على أي كتابات أو لقيات أثرية أخرى، تساعدنا في تحديد تاريخ بناء هذا المسجد، فسنرجئ هذا الأمر، للاطلاع على بعض الجوانب الأخرى. فالشماخي في إشارته إلى هذا الموقع لم يربطه بأي أحداث تاريخية[320]. ولكننا نستشف من هذه الإشارات وجود هذا المسجد في القرن الخامس الهجري – الحادي عشر مسيحي. ونحن نعلم أن الشماخي قد اطلع على المصادر التاريخية المتوفرة في وقته. وقام بتصنيف هذا المسجد ضمن قائمة المساجد، التي ينظر إليها بعين التقدير والاحترام من قبل أهالي نفوسة. ولقد جاء ذكر بعض هذه المساجد مرتبطا بأحداث تاريخية تعود إلى القرن الثاني، والثالث الهجري – الثامن، التاسع مسيحي.

ونحن نرى بتوفير هذه المعلومات، إضافة إلى وجود الأحجار الرومانية، والأسلوب ذي المستوى الجيد للبناء. الزعم بان تاريخ هذا المسجد يعود إلى القرن الثاني، الثالث الهجري – الثامن، التاسع مسيحي[321]. ويبقى الاحتمال قائما بإرجاع تاريخه إلى فترة أقدم.

مسجد أم الطبول:

يقع هذا المسجد على بعد 6 كم، إلى الشمال الشرقي من مسجد الكنيسة وهو مقام على هضبة صغيرة محاطة بمزارع أشجار الزيتون. وهذا المسجد – كما هي مساجد أخرى بهذه المنطقة –

320– الشماخي، السير ، ص 599.
321– المصدر السابق، ص 554–5.

يرى متوحدا ومهجورا. وهذا ما يجعلنا نعتقد انه قد استعمل في فترة متأخرة من قبل الأهالي إبان فترة جني الزيتون والعناية بتقليمه. ولقد رأينا هذه الظاهرة في منطقة المزاب بجنوب الجزائر[322]. ويرى اليوم بقايا لمستوطنه لا تبعد كثيرا عن مسجد أم الطبول. ويلاحظ المرء في هذه المنطقة أمثلة لبقايا هذه المستوطنة، التي تبدو أحجارها متناثرة بهذه الموقع.

و هذه الظاهرة نراها منتشرة بشكل كبير عن الجهة الغربية من جبل نفوسة. ولكنها في منطقة تمزده تدلل بنوعية الأحجار المستعملة في البناء وأسلوب تشييدها، إنها تعود فترة تاريخية متأخرة. ووجود بعض المباني حول مسجد أم الطبول في الزمن الماضي ليس بمستعبد، إذ ان باستطاعة المرء رؤية بعض الأحجار في منطقة المسجد. وإذ أخدنا في الاعتبار اختلاف تضاريس هذه المنطقة عن المنطقة الغربية من الجبل، فمن المحتمل نتيجة لندرة الأحجار ان بقايا المباني المتصدعة حول المسجد، قد نقلت أحجارها لاستعمالها في تشييد دور القرى الحديثة. وهذا ما رأيناه في قرية ويغو القديمة، التي نقل الكثير من أحجارها لاستعمالها في بناء المنازل بقرية مرقس الجديدة[323]. وهذا ما يشير إلى ان هذه المساجد المنعزلة لم تكن في سابق عهدها على ما هي عليه الآن.

و ربما يتساءل المرء عن بقاء أبنية المساجد، واستمرار وجودها عندما يرى ما حل بما حولها من تصعد، أو اندثار بالكامل. والسبب غاية في البساطة. فالأمر عائد إلى البناء الجيد لهذه المساجد، مقارنة بالأبنية الأخرى. وبالإضافة إلى ذلك فالمساجد كأماكن للعبادة تجعل

322– روشي، نفس المصدر، ص 75.
323– أنظر أعلاه، الفصل الرابع، ص 92.

الناس متحمسين من ان إلى آخر، لصيانتها وترميمها

ويعرف مسجد أم الطبول باسم مسجد (تا إسحاق). ورغم ان هذا الاسم لا يضيف شيئا في الجانب التاريخي، إلا انه يملي علينا إضافته إلى المساجد ذات الخلفيات التاريخية المسيحية[324]، مثل الكنيسة، تغليس، والحوارين. وجدير ان نوضح ان المصادر التي لدينا لا تتعرض إلى ذكر مسجد أم الطبول. ولذا فالاعتماد الكلي قائم على نتائج الدراسة الميدانية.



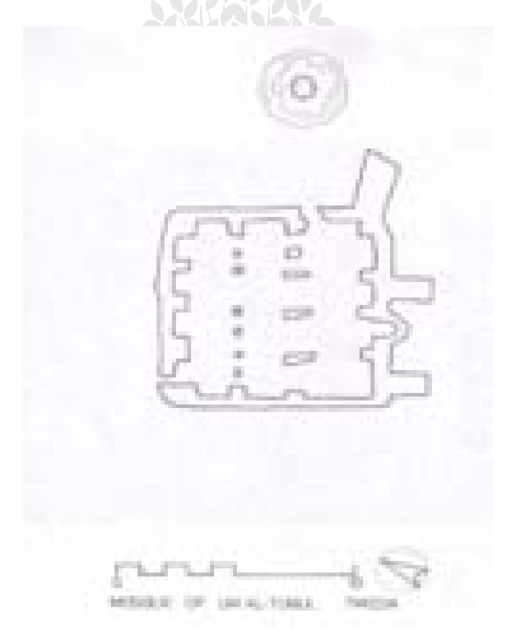
شكل 189 مسجد أم الطبول كما يبدو من الجهة الجنوبية الشرقية

ويبدو هذا المسجد بحالة جيدة، رغم تصدع عقود أروقته في الجهة الشمالية الشرقية. وعلى الرغم أيضا من استعمال الأحجار الجيدة القطع في هذا المبنى، فهو لم يسلم من أعمال الترميم. ومن الممكن رؤية جزء من هذه الأعمال في الدعامة الساندة لجدار القبلة من الخارج (أنظر الشكل 189، 190).

324– أنظر أعلاه، ص 10–6.



شكل 190 مدخل مسجد أم الطبول الذي يقع في الجدار الشرقي



شكل 191 المقطع الأفقي الأرضي لمسجد أم الطبول

ويتكون المسجد من شكل شبه مربع. ويبلغ طول جدار القبلة حوالي 10 م. بينما يبلغ طول الجدار الشمالي الشرقي 10.9 م تقريبا. أما الجدار الشمالي الغربي فيبلغ طوله حوالي 85.9 م، الجدار الجنوبي الغربي 10.10 تقريبا، بينما يبلغ سمك الجدران 65 سم (أنظر الشكل 191). ويحتوي المسجد على ثلاثة أروقة مغطاة بأقبية برملية متوازية مع حائط القبلة.



شكل 192 الجدار الجنوبي الشرقي لمسجد أم الطبول ويظهر المحراب بارزا عن الجدار

ويرى في وسط المسجد أربعة سواند تنبثق منها الأقواس، التي تدعم سقف المسجد. ويقع المحراب في منتصف جدار القبلة تقريبا. ويبلغ عرضه حوالي 70 سم، وعمقه مترا واحدا. ويكتنف المحراب من جانبيه، وكذلك أعلاه، شريط من الزخرفة الجصية. والوحدات الزخرفية جميعها تتشكل من عناصر نباتية بحتة. وهي عائدة إلى أعمال الترميم التي لحقت بالمسجد. وأما ما يثير الانتباه هنا فهو الجزء المتصدع من المحراب. فلقد أدى هذا التصدع إلى أحداث فتحة في تجويف المحراب (أنظر الشكل 192). ويبدو ان هذا

التصدع نتيجة لفعل متعمد. وهذا يذكرنا بمحراب مسجد (الكنيسة) وأحجاره المبعثرة بالمسجد. ويدعم كذلك ما يتردد بين الأهالي من قصص حول الكنوز بهذه الأبنية القديمة[325].



شكل 193 حجران مزخرفان وجدا على جدار القبلة بمسجد أم الطبول

ويظهر على يسار الناظر إلى المحراب، حجران مزخرفان، على جدار القبلة. والزخرفة متطابقة على كل من الحجرين. وتتكون من زهرة متنفخة ذات اثنتي عشر فصا (أنظر الشكل 193). وهي متطابقة

325– أنظر أعلاه، ص 102.

تماما مع ما عثر عليه في أبناين وتندميرة[326]. ووضعية هذين الحجرين في الأصل، من المؤكد ان تكون حول المحراب. ووضعها الحالي عائد إلى الترميمات، التي كانت أيضا سببا في وجود الأقواس التي تتقاطع مع جدار القبلة (أنظر الشكل 194، 195) وهذا الأسلوب من الترميم في دعم أسقف المساجد شائع في منطقة جبل نفوسة. ولقد أشرنا سابقا إلى محاسن ومساوئ أعمال الترميم هذه.



شكل 194 قاعة الصلاة بمسجد أم الطبول

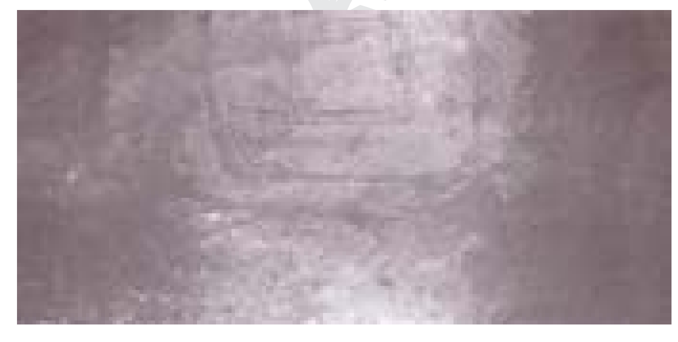
ويقع مدخل المسجد في الجهة الشمالية الشرقية من جدار القبلة. ويبلغ عرضه حوالي 85 سم، وارتفاعه حوالي 83.1 (أنظر الشكل 190) كما يلاحظ في الجدار المقابل، وعلى ارتفاع 83.1 م تقريبا، زخرفة هندسية على شكل قطعة من الجص. وتتكون هذه الزخرفة من عنصر هندسي على شكل معين، وبوسطه دائرة مقسمة إلى أربعة أجزاء بخطين متقاطعين (أنظر الشكل 194، 196) ويظهر على يسار هذه الوحدة الزخرفية شكل لشبه مستطيل ملتصق بها. وثمة احتمال بان موضوع هذه الزخرفة يرمز إلى مكة المكرمة. وعلى

326– أنظر أعلاه، الفصل الثالث، ص 64.

الرغم من نسبة هذه الزخرفة إلى عهد متأخر عن بناء المسجد، فإننا لم نشهد لها إجمالا مثلا آخر في جبل نفوسة، أما فيما يتعلق بالزخرفة الهندسية والنباتية فهي تقليد لما وجد في أبناين تندميرة[327].



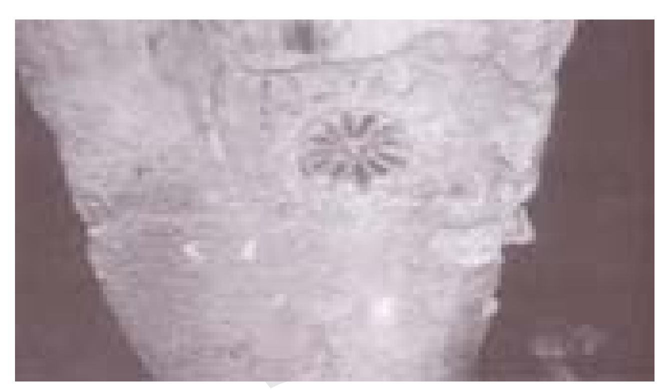
شكل 195 قاعة الصلاة بمسجد أم الطبول



شكل 196 زخرفة جصية على الجدار الجنوبي الغربي لمسجد أم الطبول

327– ان الحجر المستطيل والرسوم الجصية، التي مثلت– في اعتقادنا– رمزا للكعبة المشرفة بمكة، تذكرنا باللوحات الخزفية، التي صنعت بازنيك في تركيا. وهي تعود إلى القرنين السادس والسابع عشر مسيحيين وهذه الزخرفة بجبل نفوسة يبدو انها تقليد لما وجد على تلك اللوحات .أنظر،
Lardmann, Ars Orientalis, Vol, III, 1959. PP. 192-7.

ولقد تم العثور على حجر آخر مزخرف، مستقرا على قمة عمود في الرواق الثاني، والتحديد في الجهة الشمالية الشرقية (أنظر الشكل 197). وزخرفته التي تتكون من زهرة ذات اثنتي عشر فصا متطابقة مع مثيلتها الموجودة على جدار القبلة. وهذا مما يدعم فكرة ان المحراب الأصلي للمسجد كان مكتنفا بهذه الأحجار المزخرفة.[328] الأمر الذي يعيد إلى الذاكرة مسجد أبناين وزخرفته الرائعة على المحراب.



شكل 197 زخرفة على حجر موجود على أحد الأعمدة بمسجد أم الطبول

وهذا مما يجعلنا نذهب إلى ان بقية الأحجار المزخرفة قد استعملت في أعمال الترميم. أو إنها نقلت من طرف بعض الناس. وهذا أيضا ما اكتشفناه في كل من موقعي شروس وويغو.[329] وعلى أية حال فهذان الحجران المزخرفان والمتطابقان مع ما وجد في أبناين[330]

328– أنظر أعلاه، ص 46.

329– أنظر أعلاه ، الفصل الرابع، ص 92.

330– أنظر الفصل الثالث، ص 6.

وتندميرة، وشروس، يشكلان أهمية بالغة في تصنيف هذه الزخرفة، وإلقاء مزيد من الضوء على تاريخ البناء الأصلي .

ونلاحظ هنا كما هو في بناء مسجد (الكنيسة) ان الأحجار الرومانية قد استعملت في البناء الأصلي لمسجد أم الطبول. ويظهر هذا جليا في أعمدة المسجد، وكذلك في الدعامة الساندة الخارجية لجدار القبلة، حيث نشاهد أحجارا تنتمي إلى معصرة زيتون رومانية. وإضافة إلى ذلك وجود تيجان الأعمدة ذات الطابع الروماني (أنظر الشكل 198، 199).



شكل 198 عمود روماني بقاعة الصلاة بمسجد أم الطبول بتمزده

و يبدو ان أعمال الترميم، التي أجريت على هذا المسجد، قد تسببت في خلق جدار فاصل بقاعة الصلاة. وإذا أخذنا في الاعتبار تلك الفتحة الصغيرة الموجودة في الركن الشمالي الغربي للمسجد، تأكد لدينا تخصيص الرواق الأخير لصلاة النساء. وهذا ما رأيناه في شروس وفي غيرها من المواقع القديمة.[331] واعتبرننا هذه الظاهرة

331– أنظر الفصل الرابع، ص 79.

إحدى مكونات المسجد الأباضي. ولكننا في مسجد الكنيسة لم نلحظ وجود هذه الظاهرة . الأمر الذي جعلنا نعيد النظر في بداية نشأتها. ونميل إلى القول بأنها لم تكن موجودة أصلا في المساجد القديمة، ولكنها طرأت عليها في فترة لاحقة. ومن الممكن ان تكون لصيقة بتطور وتقنين المذهب الأباضي في القرن الخامس الهجري الحادي عشر مسيحي.



شكل 199 عمود روماني بقاعة الصلاة بمسجد أم الطبول بتمزده

وما يثير الانتباه في هذا المسجد، سقوط طبقة من (المونة) الطينية، التي تغطي الجدار في الجهة الجنوبية الغربية. وهذا ما تسبب

في انكشاف طبقة من قوالب الأجر في بناء الحائط (أنظر شكل 200) ولقد تبين بعد إجراء كشف بسيط، ان طبقة الأجر هذه تشكل الجزء الداخلي من الجدار، أما الخارجي منه فقد استخدم الحجر في بنائه. وهذه هي المرة الأولى، التي نرى فيها استعمال قوالب الأجر في جبل نفوسة. ومن المؤكد حتى الآن هذه الظاهرة غائبة تماما عن المنطقة الغربية من الجبل. ووجودها في مسجد أم الطبول يجعلنا قادرين على إضافة عنصر جديد لمواد البناء في جبل نفوسة. وعلى الرغم من العثور على بقايا آثار أفران لصناعة الفخار، فإننا لا نستطيع الجزم بتصنيع قوالب الأجر بمنطقة الجبل. ويبقى الاحتمال قائما بجبلها من أماكن أخرى، خاصة إذا عرفنا ان صلة المناطق الشمالية بالجبل كانت متصلة ومتواصلة. ومن المعروف ان قوالب الأجر قد استعملت في أبنية تلك المناطق بقدر كبير.



شكل 200 الركن الشمالي الغربي لمسجد أم الطبول بتمزده

ونحن إذ نشير إلى هذه العلاقة، لا نطرح أساس صناعتها بقدر ضئيل في جبل نفوسة. فوجود الأفران الخاصة بتصنيع الفخار[332]، يجعل الاحتمال قائما بتصنيع الأجر، خاصة في منطقة تمزده، التي يندر فيها الحجر، مقارنة بالمناطق الأخرى من جبل نفوسة.

ومما يدعم هذا الاحتمال نوعية الطين المستخدم في قوالب الأجر، التي وجدت بمسجد أم الطبول. وعل العموم فصناعة الأجر، واستخدامه في المباني في هذه المنطقة سيبقى موضوعا مفتوحا للبحث والاستقصاء.

ويبدو واضحا ان عمارة مسجد أم الطبول تتفق مع أهم ما يميز طابع المسجد القديم في جبل نفوسة. وبالإضافة إلى ذلك يبقى شكله المربع، كما هو الحال بمسجد الكنيسة، مثلا آخر لاستعارة تخطيط المسجد العراقي في القرون الأولى.

ويبدو من الطبيعي، أمام غياب الدليل الأثري التاريخي، ان نلجـأ إلى ما لدينا من شواهد، للوصول إلى تحديد تاريخ البناء الأصلي لمسجد أم الطبول. فالواقع ان إطلاق اسم (تا إسحاق) يشير بشكل أو بآخر إلى التأثير المسيحي المتعلق بصل هذا المبنى. كما ان الأحجار الرومانية البادية للعيان، والتي تذكرنا بمسجد الكنيسة، تزيد من احتمال وجود مبنى سابق لمسجد أم الطبول. ولا يستبعد ان يكون هذا المبنى كنيسة مسيحية، استخدم في بنائها هذه الأحجار الرومانية. ويحتمل إنها قد تحولت إلى مسجد إبان القرن الثاني الهجري – الثامن مسيحي. وهي الفترة التي انتشر فيها الإسلام بمنطقة جبل نفوسة. وأما إذا ركزنا على مواضيع الزخرفة بمسجد أم الطبول فسيكون

332– أنظر الفصل الثالث، ص 57.

الأمر أكثر وضوحا. فالمستوى الراقي لهذه الزخرفة وتطابقها مع ما وجد في كل من شروس وأبناين وتندميرة[333] . يجعلنا أكثر اطمئنانا لتحديد تاريخ ولو تقريبي لمسجد أم الطبول. فالمساجد المذكورة في المواقع الآنفة الذكر، كانت قائمة في القرن الثالث الهجري – التاسع مسيحي. ولذا فمسجد أم الطبول كان موجودا إبان هذا التاريخ.

مسجد أبي كار:

يقع هذا المسجد على بعد 3 كم. إلى الشمال الشرقي، من مسجد (الكنيسة). وكما هو الحال بالنسبة إلى مسجد امة الطبول، ومساجد أخرى في هذه المنطقة، فالمعلومات التاريخية لا يشير إلى أي منها. وأهالي المنطقة أنفسهم لا يعرفون شيئا عن مسجد أبي بكار. ولا يملكون إلا عبارة واحدة تجعل من هذا المسجد مكانا مقصودا للتبرك والزيارة.

و لقد بني المسجد على هضبة صغيرة تطل على حقول أشجار الزيتون، من جميع الاتجاهات. وهو كما هي مساجد أخرى معزول عن الناس والأبنية (أنظر شكل 201) والنظر إلى هذا المسجد ينبئنا من الوهلة الأولى عن تعريضه لعملية ترميم كبيرة. ويلاحظ هذا الأمر بوضوح في جدار القبلة المحتوية على الأحجار الرومانية (أنظر شكل 202). وتظهر على قطعة من الأحجار، الموجودة في الركن الجنوبي الغربي، خارج المسجد، رسوم زخرفية. ويبلغ طول هذا الحجر 39 سم، وعرضه حوالي 29 سم، وسمكه 8 سم تقريبا.و تمثل الزخرفة رجل يحرث الأرض، وجمل يجر المحراث. ويتقدمه رجل آخر يبذر الحبوب (أنظر شكل 203).

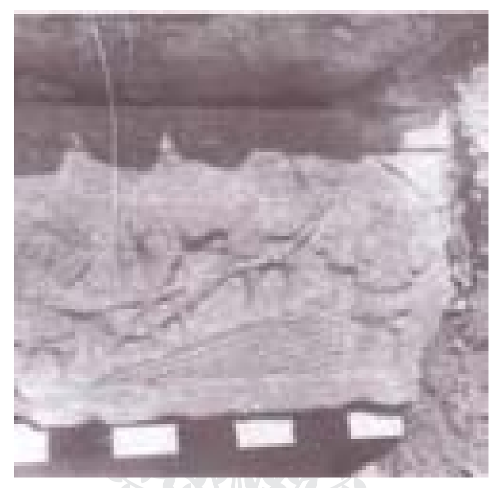
333– أنظر أعلاه، ص. 64–5–6.



شكل 201 مسجد أبي كار بمنطقة تمزده



شكل 202 الجدار الجنوبي الغربي لمسجد أبي كار تمزده



شكل 203 حجر مزخرف إلى جانب مدخل مسجد أبي كار

وهذه الزخرفة مطابقة لمثيلاتها الموجودة بمتحف السري الحمراء بأطرابلس. وتحتوي على نقوش تمثل الحياة الزراعية الريفية. وتنسب هذه الأحجار إلى مدينة (قرزة) الأثرية، التي يعود تاريخها إلى القرن الثالث – الرابع مسيحي[334] . ولذا فمن المحتمل ان يكون حجر ابوكار هذا قطعة من الأحجار المستعملة في بناء ضريح روماني.

ويتكون مسجد أبي كار من شكل شبه مستطيل. ويبلغ طول جداره الجنوبي الشرقي حوالي 7 م، والجدار الشمالي الغربي حوالي 4.15 م، بينما يبلغ سمك الجدار 70 سم تقريبا (أنظر شكل 204).

وتتكون قاعة الصلاة من رواقين يغطيهما قبوان برميليان،

334– هاينز، نفس المصدر، ص 53–7.

متوازيان مع جدار القبلة. ويستند القبوان على دعامة بوسط المسجد، تعلوها ثلاثة عقود. ويدعم هذه العقود بائكتان وجزء من عمود، ملتصقة بالجدران، ماعدا الجهة الجنوبية الغربية من المسجد (أنظر شكل 202) ويقع مدخل المسجد في الجهة الجنوبية الغربية من جدار القبلة. ويليه إلى الداخل ممر صغير يبلغ طوله 1.50 م، وعرضه حوالي 75 سم. وهذا المدخل يذكرنا بمدخل مسجد الكنيسة.[335]



شكل 204 المقطع الأفقي الأرضي لمسجد أبي كار

وتوجد بقايا لأثر جدار أمام المسجد، باتجاه الجهة الشمالية الغربية، على بعد حوالي 2.50 م. ويمتد هذا الجدار باتجاه الجنوب الغربي. ويبلغ طوله حوالي 25.10 م. (أنظر شكل 206). والأمر المحير في هذا المسجد هو عدم وجود محراب، أو ما يدل على اتجاه القبلة. ولكن بالنظر إلى بقايا آثار هذا الحائط أمام المسجد الحالي، لا يستبعد المرء وجود رواق ثالث متصدع. ويقودنا هذه الاحتمال إلى التفكير في وجود حائط آخر يمتد من الجهة الجنوبية الغربي إلى الجهة الشمالية

335– أنظر أعلاه، ص 103.

الشرقية. وللتأكد من هذا الاحتمال تعين علينا إجراء حفرية صغيرة في الجهة الجنوبية الغربية من المسجد، إلى جانب صهريج الماء الأرضي.



شكل 205 داخل مسجد أبي كار بمنطقة تمزده



شكل 206 الجدار الشمالي الغربي لمسجد أبي كار بتمزده

ولقد كانت النتيجة تأكيد هذا الاحتمال، حيث عثر على بقايا جدار يبلغ طوله 1.75 م، ملتصقا بأساسات الجدار الجنوبي الغربي للمسجد (أنظر شكل 207) ولذا فقد أدت هذه الحفريات المتواضعة إلى التأكد من ان مخطط المسجد الأرضي يميل إلى الشكل المربع، كما هو لاحال بمسجدي الكنيسة وأم الطبول. وأصبح الأمر ميسرا لتعيين موضع المحراب. ومن المعروف ان المحراب في الأغلب الأعم يتوسط جدار القبلة.



شكل 207 بقايا أثار امتداد مسجد أبي كار الأصلي

ولقد قاد هذا الكشف أيضا إلى التركيز على المدخل الحالي للمسجد، الذي آثار نوعا من التساؤل بوجود ممر يعقبه.و لذا استمر العمل في تعقب بقايا أساسات في المساحة الصغيرة، التي تقع أمام المدخل. وهنا أيضا تم الكشف عن بقايا أساسات لشكل نصف دائري (أنظر شكل 208) ولذا أصبح واضحا ان بقايا هذا الأثر المنحني،

كان يشكل حنية المحراب الأصلي للمسجد (أنظر شكل 204).



شكل 208 مدخل مسجد أبي كار بمنطقة تمزده

ولقد ساعدتنا بعض الشواهد في تحديد تاريخ تقريبي للمسجدين السابقين. ولكن الأمر بالنسبة لمسجد أبي كار يبدو مختلفا. ولقد أشرنا إلى حجم أعمال الترميم التي أجريت على هذا المسجد. وربما يعود هذا إلى عمل متعمد أدى إلى تصدع المسجد بشكل كبير. ولا يجب ان يغيب عن أذهاننا وراية البحث عن الكنوز. وعلى الرغم من غياب كثير من الأدلة التي تساعدنا في تحديد تاريخ هذا المسجد، فاعتمادنا على ما لدينا من شواهد، ربما يساعد في هذا المجال. ونحن إذا أخذنا في الاعتبار تخطيط المسجد المائل إلى الشكل المربع، ووجود الأحجار الرومانية، رأينا بوضوح التماثل القائم بين أبي كار وبين المسجدين السابقين. ولذا فينطبق عليه ما اقترحناه بشأنهما.

وبمراجعة ما تعرض إليه البحث بخصوص بعض المساجد بوسط جبل نفوسة، يتبين لنا قد حافظت على أهم مكونات المسجد الأباضي، التي رأيناها في مساجد المنطقة الغربية من الجبل، والعائدة إلى القرون الإسلامية الأولى. ولعل من أبرزها غياب المنبر والمئذنة والنقص الشديد فيما يتعلق والمادة الزخرفية والكتابية.

وإضافة إلى ذلك، أظهرت المساجد في المنطقة الوسطى، على الرغم من عمليات الترميم العشوائية، مظهر اشد وضوحا للتأثيرات المسيحية والرومانية والمحلية. فلازالت أسماء المساجد وبعض عناصرها المعمارية تقف شاهدا على ماضي هذه المنطقة. وتشير إلى المنعطف التاريخي الذي طرأ عليها بانتشار الإسلام بين ربوعها. الأمر الذي جعلنا نشهد التأثيرات الرومانية والمسيحية والإسلامية مجتمعة في مبنى واحد. ولقد رأينا ان الأخيرة قد استوعبت الكل، وطبعته بالطابع الإسلامي، الذي يركز على جوهر المكان بالدرجة الأولى. ولعل تمسك الأباضيين الشديد بهذا الجوهر، دعاهم بحماس إلى توظيف هذا المظهر الجديد في كل مكان لا يمت إلى الإسلام بصلة. فعمدوا إلى إحالة الكنائس القديمة إلى مساجد، أو البناء على أنقاضها. كما استعملوا أحجار المباني الرومانية المتصدعة، وربما القائمة، في المباني التي تخدم أهداف هذا التوجه الجديد. ويظهر ان هذه الطفرة كانت على أشدها إبان القرن الثاني الهجري – الثامن مسيحي.